

علم الكلام والمجتمع

د. ابراهيم الحيدري

الكلمات المفتاحية: إبراهيم الحيدري، علم الكلام، المعتزلة، العقلانية، الجهاد.

ارتبط علم الكلام (Theology) منذ نشأته الأولى بمشاكل المجتمع المتعدد الثقافات. فبالرغم من أنه يبحث في ذات الله، إلا أنه لم يكن مجرد تأمل تجريدي لعلماء الكلام يقف بمنأى عن كل ما يحدث في المجتمع من صراعات اجتماعية واقتصادية وسياسية، ذلك أن علماء الكلام هم أفراد في المجتمع يتأثرون ويؤثرون فيه ويكتسبون مكانتهم وهيبتهم الدينية من خلال تلك الصراعات، بالرغم من أنهم يزعمون أنهم يقفون فوق المجتمع بفضل علومهم القدسية.

إن التعرض لهذه العلاقة المعقدة في تساؤلاتها العديدة ومفارقاتها الفائقة الدقة وكذلك في منهجيتها الإبيستمولوجية، والأنثرو - سوسيولوجية، أمر ليس بهين، محاولين قدر الإمكان التعرض بإيجاز لأهم المواضيع والقضايا التي ترتبط بها وعوامل تشكيل الوعي الإسلامي والهوية ورموزها التي أدت إلى وحدة الفكر الإسلامي وازدهار علم الكلام، وتطور الفكر العقلاني - التنويري لدى الفلاسفة المسلمين.

إن تشكيل الوعي الاجتماعي والهوية الدينية بمختلف رموزها، وبخاصة العلاقة بين الإنسان والله، وبين الفرد والجماعة، وبين العقيدة والمسؤولية، وكذلك تشكيل صورة الرسول من خلال القرآن والسنة لم تحدث مرة واحدة، وإنما تطورت مع الأحداث التي رافقت انتشار الإسلام في الأمصار المختلفة. وقد ارتبطت هذه التطورات بوحدة الأمة ووحدة الفكر الإسلامي، وأثرت بدورها على تطور علم الكلام وازدهاره في البصرة ثم في بغداد، مثلما أثرت على تطور المعارف والعلوم، وأنتجت أنثروبولوجيا إسلامية كما عند "ابن هذيل العلاف" وكذلك تطور منظومة الفكر المعتزلي، كأول حركة عقلانية في الإسلام¹.

¹ J. Van Ess, *Theologie und Gesellschaft im 2 und 3 Jahrhundert*. Bd.1-6, Berlin-Beirut, 1992-1997

بالرغم من التشابه بين النزعة التنويرية التي ظهرت في أوروبا إبان عصر النهضة، وبين النزعة التنويرية التي ظهرت عند مفكري العرب والمسلمين في العصر الوسيط، علينا التفريق بين تيارين فكريين، ما زال يتصارعان منذ القرون الوسطى حتى اليوم. يتمثل التيار الأول بالنزعة اللاهوتية المركزية، والثاني بالنزعة الإنسانية المتمركزة على الذات. وقد تجسد التيار الأول لدى المفكرين المسلمين ويتخذ من النصوص الدينية المقدسة مرجعية له. أما الثاني فقد تجسد لدى الفلاسفة العرب والمسلمين واتخذ من "افلاطون" و"أرسطو طاليس" مرجعية له. غير أن عصر النهضة الأوروبية هو وحده الذي تجرأ على إحداث قطيعة مع علم اللاهوت وحقق للفلسفة استقلاليتها الكاملة، في حين لم تستطع النزعة الإنسانية العربية - الإسلامية تحقيق استقلاليتها كاملة من المرجعية الدينية. فالفلاسفة الكبار، ك"الفارابي" و"ابن رشد" بقيا خاضعين في نهاية المطاف إلى المرجعية الدينية. ولذلك، كما يقول "أركون"، فإن عصر التنوير الأوروبي هو أول عصر حقق الاستقلالية الكاملة للعقل بالقياس إلى النقل².

وهكذا نجد بأن الإشكالية المركزية التي تتحكم بالفكر أو العقل العربي هي عدم التعارض مع النصوص الدينية الكبرى. ومن الممكن التفريق بين ثلاثة تيارات أساسية حددت هذه الإشكالية المركزية وهي:

أولاً: التيار التقليدي الذي يقول بأولوية النقل على العقل.

ثانياً: التيار العقلاني الذي يقول بأولوية العقل من دون أن ينفي النقل أو يتجرأ على إعلان الخروج عليه.

وثالثاً: التيار الصوفي الذي يقوم على التجربة الروحية والاستبطان الداخلي والتأويل الرمزي للنصوص.

يتمثل التيار الأول في جميع المبادئ الإسلامية التي تخضع للموقف التقليدي حيث يكون العقل بالنسبة لها أداة طبيعة في خدمة النص، وهي بعيدة عن النزعة الإنسانية، ولذلك ضعفت عندها الثقة بالإنسان وبفكرة الابداع والتقدم وبقيت في تدهور وانحطاط حتى القرن التاسع عشر، واستيقاظ العرب والمسلمين على صدمة الحداثة الأوروبية.

أما التيار الثاني الذي يقول بأولوية العقل على النقل فقد مثل حركة التنوير العربية - الإسلامية في العصر الوسيط، تلك الحركة التي تحتاج إلى قراءة متأنية لمسيرة العقل والعقلانية في الإسلام وكيفية تشكل هذا العقل وتطوره وانشغالاته وتأثيره في تطور الحضارة العربية - الإسلامية وازدهارها. ففي عصر التنوير الإسلامي كان

² محمد أركون، قضايا في نقد العقل الديني (بيروت: دار الساقي، 1998)، الصفحات من 284 إلى 286.

للعقل مكانة خاصة في الفكر الإسلامي لا مثيل لها في النصوص المتأخرة. فبالرغم من أن الصياغة اللغوية الخاصة بالقرآن تختلف كثيرًا عن الصياغة التي جاءت بها الأحاديث في علم الكلام والفلسفة، فإن مفهوم العقل في القرآن "هو عقلي تجريبي" و"ليس عقلاً باردًا تأمليًا، أو استدلالياً برهائياً". وما جاء في القرآن من عبارات من نوع "أفلا تنظرون" أو "أفلا تعقلون" لا تعني الدعوة إلى استخدام العقل، أو التحليل المفهومي، أو المنطقي للظواهر، لأن مثل هذا التحليل إنما ظهر لاحقًا، أي بعد دخول الفلسفة الإغريقية إلى العالم الإسلامي، وهي المرحلة الثانية التي شهدت نشوء العقلانية وازدهارها، عندما دخل العقل الإسلامي ولأول مرة في مواجهة مباشرة مع العقل الفلسفي والعلمي الإغريقي، الذي انبثق من خلال الصراع مع المعرفة الأسطورية وضدها. وهو ما جسده فكر المعتزلة التحليلي المستقل الذي أسس البدايات الأولى لنشوء الفلسفة الإسلامية³.

الفكر المعتزلي

إن صياغة المعتزلة للمسألة الدينية صياغة عقلانية واضحة لا تقتصر على وحدانية الله وحسب، بل تناولت النبوة والإيمان والأخلاق، ولم يعد النقل محور المعرفة، وإنما العقل، الذي شكل في الحقيقة، تحولًا حاسمًا في تاريخ الفكر العربي الإسلامي حيث أخذ المرء مذاك يجزء على أن يخضع الوجود كله لمقاييس العقل وأحكامه وينظم العالم الديني والأرضي تنظيمًا عقليًا. وقد ارتبط التوكيد على العقل بالتوكيد على الحرية، فلا عقل دون حرية ولا حرية دون عقل، والعقل يفهم الواقع، والحرية تغيره أو تعيد تشكيله وفقا للعقل⁴.

وهذا القول يعني مبدأ استقلال العقل، الذي يستطيع الإنسان بموجبه التمييز بين الحق والباطل وبين الخير والشر. إن إعطاء العقل هذه الأهمية الأولية، إنما يعني ردًا مباشرًا على الذهنية التقليدية التي تقول بعجز الإنسان عن بلوغ الحق والخير بعقله، أو بقدرته الإنسانية وحدها. وبهذه الصيغة فصل المعتزلة بين الدين والسياسة، بالرغم من أنهم رأوا بأنه لا يوجد بين العقل والدين تناقض. وكان التوحيدي نموذجًا للمثقف المتحرر من كل وصاية الذي عبر عن مساحة كبيرة عن الرأي الحر وأسس الحداثة، التي نشأت في مناخ عقلي فيه كثير من الحرية والجرأة، وكانت له قناعة تامة، بأن استبداد السلطة ينبع في كثير من الأحيان من خنوع الناس وخضوعهم وخصوصًا طبقة الكتاب الذين يمثلون أنتلجنسيا ذلك العصر. وكان التوحيدي قد انتمى إلى إحدى الحركات

³ المصدر نفسه.

⁴ أدونيس، الثابت والمتحول، بيروت 1984، ص 85

السرية في بغداد وشارك في كتابة "رسائل اخوان الصفا" التي كانت محاولة تنويرية تهدف إلى تغيير المجتمع بواسطة الثقافة والعلم والفلسفة. وبهذا مثلت رسائل إخوان الصفا، الصيغة المثالية للمثقف الفيلسوف الذي لم يتورط في خدمة السلاطين.

أما ابن حزم فقد رأى بأن استخدام العقل في الأمور الدنيوية بطريقة منطقية كفيل بحل أكبر المشكلات وأعقدها، وذلك لأن الإنسان امتاز على سائر المخلوقات بعقله، الذي بموجبه يستطيع طرد الهموم من تفكيره والسيطرة على انحراف الانسان هو الطريق القويم.

ويعد ابن مسكويه المتوفي عام 1030 فيلسوفًا ومؤرخًا كبيرًا جمع معارف عديدة في علوم القرآن والحديث إلى فلسفة أرسطو وأفلاطون، إضافة إلى معرفته بالتراث الأدبي والفلسفي الإيراني القديم. ويعتبر كتابه تهذيب الاخلاق الأهم بين كتبه لأنه حصيلة سنوات طويلة من الدرس والبحث والتأمل، وشكل نظامًا في البناء الفلسفي الرصين، الذي تمحض عن برنامج تربوي يؤسس لعلم أخلاق يقوم على الميتافيزيقيا وعلم الكون.

إن أمثال هؤلاء الفلاسفة عملوا جاهدين على تعميق الفكر الإنساني المتفتح على العلوم الدنيوية، والعقلانية، وتوسيع دائرة نشرها عن طريق منهجية أدبية جمالية جذابة، مثلما فعل أبو حيان التوحيدي الذي سمي " بفيلسوف الادباء واديب الفلاسفة" فهو لا يتحدث عن الفلسفة بشكل جاف، كما فعل "ابن رشد" أو "الفارابي"، وإنما تحدث بشكل حي ومنعش وبأسلوب أدبي رفيع⁵.

أما التيار الثالث فهو التيار الصوفي الشعبي الذي نشأ وتطور في تربة سياسية متمردة وكرد فعل روحي واجتماعي على الأوضاع الاجتماعية السائدة ومحاولة لتحدي السلطة، التي حرفته بضغوط سلطوية تسلطية وحولته إلى زوايا وحلقات دروشة معزولة عن تيار الحياة الاجتماعية. وقد انتشر التصوف الشعبي في العالم الإسلامي ونشأت فرق وأنظمة وطرائق صوفية عدة، لكل منها طريقتها الخاصة في مجاهدة النفس. غير أن الانحطاط التدريجي في الفكر والممارسة، حول التصوف الفلسفي إلى مجرد طقوس جامدة ممزوجة بكثير من البدع والشعوذة والخرافات.

⁵ محمد أركون، قضايا في نقد العقل الديني (بيروت: دار الساقي، 1998)، الصفحات من 284 إلى 286.

وقد ظهر التأثير السلبي للدروشة بصورة واضحة في فترة الانحطاط الحضاري عندما اتخذت بعض الفرق الصوفية، مواقف سياسية ومصالحية مؤيدة للحكومات المستبدة، ومن ثم للسلطات الاستعمارية، كما حدث في نهاية الدولة العثمانية وكذلك في المغرب العربي⁶.

إن فشل حركة التنوير العربية - الإسلامية لا يرتبط بالظروف الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية فحسب، وإنما بانفصال النظرية عن الممارسة العملية التي حملتها الطبقة الوسطى والمثقفة (الانتليجنسيا) التي كان من المفروض أن تحمل على اكتافها مبادئ التنوير والعقلانية وتواصل مسيرتها بدون هوادة أو كلل، ولكنها حالما وصلت إلى السلطة، كما حدث في زمن المأمون، تنكرت لمبادئها وأفكارها الثورية، وأخذت تقمع بدورها خصومها وما تحمله من مبادئ وما قالتها في خطبها وما دونته في كتبها. وكان محمد بن عبد الملك الزيات، الذي قال بأفكار المعتزلة وتبنى مقولاتهم، انقلب انقلاباً كبيراً عندما وصل إلى السلطة وتحول إلى جلاّد مستبد لم تعرف الخلافة مثيلاً له⁷. ويعود ذلك إلى أن العقل ظل إيماناً ينطلق من مقدمات شرعية لا شك فيها، بمعنى أنه ظل أسطورياً وبعيداً عن التجربة والممارسة العملية والتساؤل المستمر.

أفول العقلانية

إن انتقال الحضارة العربية - الإسلامية من المشرق إلى المغرب والأندلس، إلى جانب العوامل الأخرى التي تحدثنا عنها، ساعد على أفول النزعة الإنسانية والعقلانية وتغير المواقف الفكرية والفلسفية، وبخاصة بعد الانتكاسة التي واجهتها الفلسفة العقلانية بعد هجوم الغزالي في كتابه **تهافت الفلاسفة** على دور العقل والعقلانية في التراث الإسلامي وسيطرة النص الجامد وتأصيله وكذلك سيطرة التيار اللاعقلاني الذي كان من شأنه تحجيم قيمة العقل والعقلانية وإعادة الاعتبار إلى المنطق الأرسطي الذي تم تجاوزه وترجيح الموقف الديني الذي يرى بأن العقل قاصر على الاستقلال الفكري ولا بد له أن يكون خادماً للنص الديني الذي لا يقبل النقاش والنقد، لأنه يمثل الوحي، وانتشرت مقولة السيوطي "من تمنطق فقد تزندق"، فالمنطق يؤدي إلى تحريك الفكر والشك والفلسفة وهو ما يؤدي إلى الكفر والإلحاد.

⁶ إبراهيم الحيدري، **تراجيديا كربلاء**. سوسولوجيا الخطاب الشيعي (بيروت: دار الساقى، 1996)، الصفحة 197.

⁷ محي الدين اللاذقاني، **آباء الحداثة** (لندن: 1998)، الصفحة 29.

إفقال باب الاجتهاد

إن إفقال أبواب التفكير العقلاني النقدي وكذلك القياس والاجتهاد، أدخل الأمة في مأزق حضاري وحول الفقه إلى أداة مدججة بيد فقهاء البلاط ووعاظ السلاطين. وهكذا توقفت مغامرة العقل الإسلامي في مواصلة تحدي الظروف والشروط التي هيمنت على المجتمع آنذاك، مما فسح المجال للطاعة العمياء والرضوخ، الذي رسخ الوعي الأسطوري وسهل الانحدار نحو عصر التخلف والظلام.

إن تفكك الدولة العربية والإسلامية في مطلع القرن الحادي عشر الميلادي وظهور الأزمات والتأزمات الكبرى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وتفاقمها، أدى لاحقاً إلى إحداث تغييرات بنوية طالت ميزان القوى لمصلحة أوروبا. وقد رافق ذلك اضمحلال التجارة، وسيطرة التجارة الأوروبية على موانئ البحر الأبيض المتوسط وظهور ملامح عصر النهضة في أوروبا بدءاً من حركة الاستكشافات الجغرافية والتوسع الاستعماري لأوروبا فيما وراء حدودها الجغرافية، إضافةً إلى بدايات التقدم العلمي والتقني بظهور نظريات كوبرنيكوس، وغاليليو، غاليلي، وديكارت، وكيبيلر، ونيوتن، وسبنوزا، وكانت، وهيغل، وغيرهم في حين دخل العرب والمسلمون في عصر الظلام، فلم يظهر خلال تلك الفترة عالم، أو مفكر، أو فيلسوف وفي جميع أنحاء العالم الإسلامي بعد موت ابن خلدون، الذي أرخ لأفول الفكر والفلسفة والعلوم في العالم العربي والإسلامي، ولبداية عصور مظلمة استمرت حتى القرن التاسع عشر وظهور مصلحين جدد أمثال الطهطاوي والأفغاني وعبده وغيرهم، الذين انبهروا بأنوار أوروبا وتقدمها العلمي والتقني وشعروا بتأخر الشرق وتخلفه، مما سبب صدمة نفسية ومركب نقص حضاري ما زالت أصدائها تؤثر في نظرة العرب والمسلمين إلى الذات وإلى الآخر حتى يومنا هذا.